شهادات

[١]
كانوا ملح الارض ... وعادوا

احمد بهاء الدين

لا أعرف لماذا أثار السؤال حين طرحته علي مجلة « شؤون فلسطينية » خواطر شخصية ، ولا اعرف هل أسترسل قليلا مع هذه الخواطر أم لا ، ربما لانها على وجه اليقين نموذج لفلسطين وكيف ألفيت بذرتها في ضمير كل عربي .

كان ذلك سنة ١٩٤٨ قبل الحرب العربية الاسرائيلية الاولى . وكنت قد تخرجت منذ شهور من كلية الحقوق وعملت وكيلا للنيابة الادارية ، وارسلني العمل لتحقيق احدى القضايا في بور سعيد .

كنت أرى بور سعيد لاول مرة . وفي غير ساعات العمل ، ومع الغروب ، سرت اتمشى في الشارع الموازي للميناء ، بجوار السور الحديدي الذي يفصل الميناء عن المدينة . وفجأة رأيت الناس يتجمعون حول السور . وانحشرت وسطهم لارى عدة قوارب شراعية اضناها الموج ، تقترب من الشاطىء مع برودة الغروب وتحت سماء مجللة بالسحب .

كان كل قارب قد امتلأ حتى آخره بالنساء المتشحات بالعباءات السوداء والاطفال ، وفي الغالب معهم رجل عجوز . وسرت الكلمة بين الناس انهم فلسطينيون طردهم الارهاب الصهيوني وقد قطعوا البحر من يافا الى بور سعيد . وبسرعة احاط جنود الشرطة بالميناء ، واحاط اخرون بالقوارب ذاتها . وزاد تزاحمنا . ثم علا صياح الناس . وأظنهم فهموا ان ركاب القوارب في محنة ، وانهم لن يدخلوا المدينة بسرعة ، والبرد يشتد والليل يقترب . واغرورقت عيناي بالدموع . فكأي مهتم بالسياسة كنت اتابع الاحداث في الصحف ولكن لم اتصور انني سأراها فجأة بعيني . اما اهالي بور سعيد ، فقد نبت وسطهم من يحملون اقفاصا من الخبز والموز والبرتقال ، واخذوا يقذفون بها في الهواء فوق رؤوسنا ، ورؤوس صفوف البوليس ، ليسقط بعضها في الماء ، وبعضها في القوارب .

كانت الاوامر لم تأت من القاهرة بعد عن ماذا تفعل السلطات بهؤلاء . وصارت المدينة تغلي بالسخط على ابقائهم في القوارب . وهبط الليل واضيئت الانوار . وبدأت تطير من فوق رؤوسنا هذه المرة المعاطف والبطاطين . من الناس من خلع ما عليه والقاه في الهواء . ومنهم من روى ان التاجر فلان أرسل كل ما في متجره من بطاطين .